AL-SABAH
الصباح
مقامات
No. 5207 | الجمعة | 24 ذي الحجة 1446 هـ | 20 يونيو 2025 م | السنة الثامنة عشرة
Alsabah Media
www.alsabahpress.com

# حنظلة !

بقلم :
د. سيد شعبان

يحاربونني، يمنعون عني القلم، يخفون الأوراق البيضاء، يسخرون من تلك الخربشات التي أدونها على حائطي، في حالات كثيرة أتحايل على كل هذا؛ أخزن في عقلي، تذمرت دون جدوى، يمعنون في القهر، يسرقون عوالمي حيث آخذ منها تجاربي!

متشبع بالبطولة حتى ولو كنت مثقوب الحذاء، حالم بعالم أجمل، تختفي منه تلك الحيات التي تسكن عتبات البيت الكبير، قلمي رديف شرياني، أتوكأ عليه، أنسج من نثاراته رداء، هذا وقت التحايل، على كل عوامل التعرية؛ جسدا وروحا، في الكتابة مقاومة، أحيانا أتخفى وراء ظلال شفيفة، إنه الرقيب يحصي كل الحروف، هذه أشياء ترهق، لكنها ممتعة، فالتاريخ عرف الجبرتي حيث كتب عن عصر شهد بدايات المواجهة.

السرد متعة وفتنة ومقصلة، كيف لي أن أتخلص من هذه العوائق، تبقى الكلمات صورة حية عن عالم يتعارك وينصب العداء للإنسان.

أحيانا أتمثل نفسي ناجي العلي حين أبدع " حنظلة".

رئة أتنفس بها الهواء.

نحن نكتب لنسجل للقادمين بعدنا صورة عن حلم موشّى بخيوط ذهبية سرقها الثعلب الماكر. كانت اللوحة تجمع أجزاءها؛ جميلة تفتحت بها الأزهار؛ لكنها كانت مخضبة بكل نزف.أختى التي سافرت!

حين تفتحت عيني للمرة الأولى كانت معي، ثمة علاقة تربطني بها، اجتمعنا على ثدي الأم، وكثيرا ما تتبادل النسوة الصغار، ساعة تصفو منهن الثرثرة عند فرن الخبيز، أو يتناقلن الوشايات عن واحدة ارتدت ثوبا أحمر تتراقص عليه الورود، إنها الغيرة تشتعل نارا.

إنهن في انتظار أخبار عن تلك التي خرجت ولما تعد، هل كانت عاشقة؟

في قريتنا للحكي ألف تفسير؛ سيما والرجال مرضى، دائما مربوطون حتى في ليلة العيد لا تصدر الأسرة حركتها الشهية.

فرق كبير بيننا؛ جمالها الذي يخجل منه القمر ليلة التمام، تلمع مثل البدر، بالفعل هي هكذا، يسرح في أشعته شعرها، كل الشباب يتحدثون عن فتنتها التي لا تقاوم، وحدي أشفق عليها، أمسك بعود من شجرة الكافور التي كانت يوما عملاقة؛ أدافع عنها، وقد أعجز فينتابني البكاء. للثدي الذي رضعناه سويا حرمة لا يجوز لها أن تبهت.

أنا مثل ظل عود الذرة ساعة القيلولة، أتخفى من الشمس بكفين يبدوان كما لو أن عصفورا مات وتركهما.

تعود بي الذاكرة ربع قرن حين كنت أمسك بيديها، صغيران نلعب في الحارة، حارسها الذي يقف على سر الكنز، يومها قالت لي أمها التى جاءت بها إلى الحارة بعد حمل مر كأنه نسمة العصاري: دعها فقد صارت امرأة؛ النساء بارعات في التدليس، مثل ظلها تبعتها، يكفى أن أكون معها، تجري ورائي الأحلام المؤجلة، لا أطمع في شيء مما يتحرك في خيال الصبية، في يوم رأيتها تلبس الثوب الأبيض، تركب السيارة، تبعتها بنظرات تملؤها الحسرة؛ لقد رحل عالمي الذي شيدته من خيالات الطفولة، ما أصعب أن تبقى بلا أحلام حتى ولو كانت صغيرة، من يلعب معي، بل من يرسم لي في كراسات المدرسة أجمل العصافير؟ أن يسقط المطر ونبقى تحت السحابة نلهو بالقطرات، تتسخ ثيابي؛ تسرع وتنظفها، يشتد بي الجوع تخرج من حقيبتها شطيرة الخبز المحشوة بالحلوى.

كثيرا ما كنت أراها حمامة بيضاء تأتي إلى شرفة حجرتي، تقف وحيدة، هل تراها هي؟

أم هي الظنون تملكتني، إنها ارتحلت بعيدا، لن تعود، هكذا كانت أمها التي جاءت بها يوما إلى حارتنا، تنكر أن ثديا واحدا اجتمعنا عليه؛ كيف لهزيل مثلي أن يشبه جميلتها في شيء، أقلب في أشيائها التى غادرت وتركتها، هذه وردة مجففة، صورة بقلمها الرصاص، خربشات حول الحائط تلتف مثل وشم يبدو أثرا خالدا

بلادنا عروس جميلة، لكنهم يقصرون عمدا ثوبها، هذه آفة تسكن الزوايا الخفية، يتربع على مقعد الكلمة مقامر رهيب، أصحابي خاطوا ألسنتهم رغبة ورهبة.

أشاغب كثيرا، تعجبني ذات الشعر المتهدل، كأن فمها حبة عنب، عيناها سحر، إنها المحروسة رغم مرور العمر، تبقى جميلة، يصرون على أن نكون موتى، يهزأون بالبشر يهدمون الحجر، تبقى منا الآهة الثكلى التى تكتم حسرتها؛ رغم كل هذا نظل ننبض بالحب لوطننا.

أكتب لأستمر في رحلة العودة إلى الجذور، أحاول أن أتخلص من إثر الذئب، ما على المرء من سبيل حين يقف على قدميه كلما سقط، تحنو عليه الأرض، تظلله السماء، يبقى معي القلم رسالة معاندة.